وقائع حلم على خطى المعلم حسن فتحي: المكان الأسطورة!

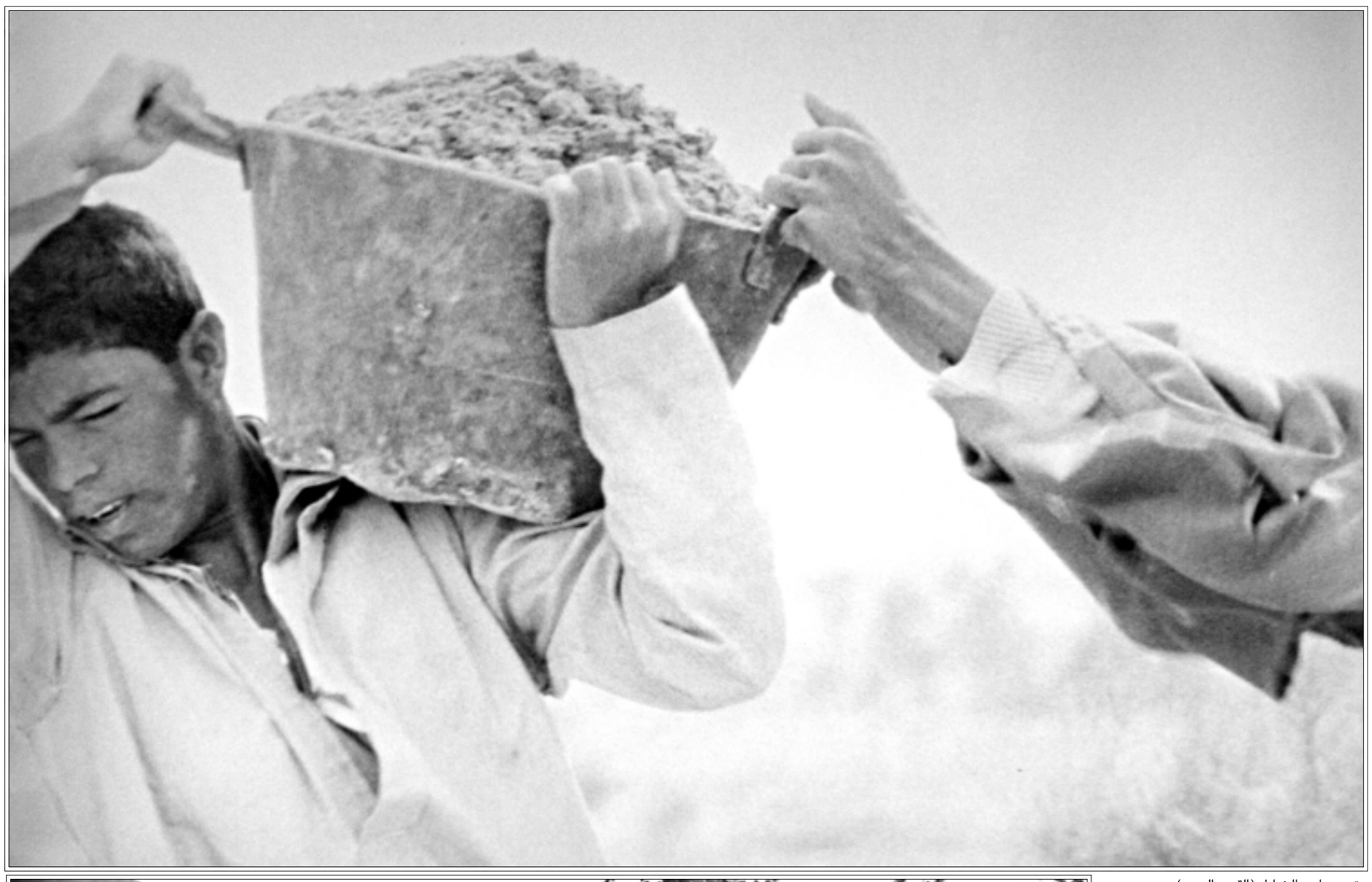

تصوير ايمن الخراط (القدس العربي)

أيمن الخراط*

■ هذا المكان الاسطورة، بناسه الذين يعيشون فيه، ام هو بسبب طبيعة المكان الجغرافية والديموغرافية؟

لم نكن نعرف حينئذ عندما ذهبنا خمستنا، واحد لكي يزور معلمه واباه الروحي وهو رسام كبير يعيش بعيدا عن التجمعات المسكونة بـ«المخاليق» المزعجين، وكلهم مزعجون في رأيه حتى نحن عندما فتح الباب وشاف عددنا، وآخر اخذنا هناك حتى يحج الى عمل من معلمه الكبير حسن فتحي وفي ظنه انه سوف يفعل ما في رأسه وما قد علمه اياه وقد فعل احسن مما ظن.

ذهبنا ايضا كي نتلمس هذا النوع من الحياة التي تدمغه هذه الفخارية التي لم تكن كبرت في السن حينئذ عندما زرناه قبل عشرين سنة في صيف قارون عند طرفها الغربي حيث يختلط الصعايدة بأولاد بالسيويين ليكون هذا الخلط سكانا عباقرة لا يلقون الغريب خارجا، فسهلوا مولد تلك القرية.

لم نكن نعرف تمام المعرفة وقتئذ، لكني الان كما لو كنت أحلق فوق المكان على ظهر الطائر الرخ وأرى من الاعالي ما لم اكن ادركه. انا اعرف الحقيقة او هكذا اظن لذا اريد ان احكي لكم.

كنا نظن اننا سوف نبني بيتا واحدا كبيرا يجمعنا، به حوش وسيط وحوله مجتمع صغير متكامل، فوق الخيال، نعم. واحد رسام واخر معماري ونحن، ولكن ما آلت اليه الامور كان ايضا فوق الخيال. ليس تماما ما رسمناه، لكنه اسطورة، ولا تحاول ايها القارىء ان تبحث عن هذا المكان الآن لانك سوف تفهم بعد قليل انه غير موجود الآن ولا كان موجودا وقتها، انه موجود فقط في داخل اذهاننا عندما ذهبنا، واظنه ما يزال كذلك.

هناك اكثر من مئة بيت قائم اليوم في تلك القرية، ذهب الكثيرون ممن لم يروا الا المكان وبقي فقط من شافوا الحالة الحلم التي سوف يدركها الكثيرون في ما بعد. اثرياء اشتروا وبنوا وتركوا وراءهم حجارة فوق حجارة بعد ان لم يعجبهم ما لم يروا.

نريد بيتا بلا باب كما كنا نتصور، لكن عليه قفل حديدي يستلهم ما فعله الأسلاف لحلّ مشاكل الحرارة ويستجيب لأسئلة البيئة والسوق، خصوصا مع عدم وجود شركات مقاولات تستعمل الاسمنت والطوب الجاهز في ازمنتهم تلك.

طين تحت اقدامنا نخلطه في ماء مع رمل وتبن ونضعه في قوالب ثم نفرشه تحت اشعة الشمس لتعطيه الحياة ويتحول الى طوب اخضر نبني به، بناء يبقي الحرارة في الخارج عندما لا نريدها ويحتفظ بها في الداخل لما نحتاجها.

تذكرنا الطريقة التي يبني بها الاجداد قببا وقباوى واشياء جميلة يعرفها هؤلاء المعماريون الابالسة كأنها السحر، لا نخرج منه حتى ندخله.

عقولكم مختلة وليست في اماكنها الصحيحة ولكن المنظر جميل جدا. قالوا بحيرة قارون والصحراء وراءها وهذه التلة الحجرية المالحة، ما لكم وهذا الخبل تشترون أرضا لا تنزرع وتبنون حيث لا طريق اسفلتيا يصل هناك، تمشون وراء الرسامين والفخارين والشعراء والمعماريين الذين اختاروا ان لا يكون لهم مكتب بوسط البلد. هكذا قال الناس الذين اشترينا منهم الارض، وكانت وقتها بسعر زهيد لان لا احد كان سيشتري هذا الجزء البور من المنحدر الذي لن يطرح رسميا ابدا، كانوا هم ايضا اسطورة واعتقد انهم ما زالوا حيث لم يلقوا بنا الى الخارج مع التبن الناشف ودريس القمح، تركونا نتواجد بينهم ونتعلم منهم الكثير ويتعلمون منا القليل جدا لما شافوا البور يتحول الى مدرجات مزروعة بخدع تعلمناها من مهندسي وزارة الزراعة وبذورهم العجيبة، البنجر العلف البقري التي رفضوا رفضا باتا ان يزرعوها لانها بدعة لم يروها من قبل.

مدرجات مزروعة ومبنية بطوب اخضر وسقوف غير خشبية تنمو من الحوائط وتميل على نحو يهدد بالسقوط، ولكنه لا يقع على الارض خاصة اول مرة بنى الصبي ذو الاربعة عشر ربيعا قبة، والذي صار الان معلم صنعة، اول مرة وضع طوبة في الهواء وتحتها هواء مسنودة من الجانب فقط في دائرة تطير في الهواء. هذا سحر، قالوا، لكنه جميل. وثمنه قليل وايضا يدفعون لنا نقودا حتى نبنيه. حتى انهم صاروا لا يستجلبون الصعايدة لكي يبنوا القبب، بل يدفعون لي انا المعلم احمد عبد الله لكي ابني لهم قببهم، ايضا بنيت لنفسي قبة هي الاجمل في قريتي حسب قول اولاد القاهرة. منا ثلاث مجموعات صارت تبني لهم القبب ومن كل مجموعة تفرعت الامور الى فرعين.

طارت سمعتهم حتى الساحل الشمالي في مقاولات مبانٍ سياحية.

احلام كثيرة في رؤوسنا وادمغة معلمينا صارت الان حقيقية واعرفها وحكيتها لكم.

فخارون كثر ومعماريون عدة ورسامون ايضا يعيشون هناك. صبية كثيرون صاروا معلمين واولادهم سوف يحرصون على ان يذهب البعض منهم الى مراحل اعلى من التعليم الجامعي، او هكذا نتمنى لهم ونحثهم. شافوا البور ينزرع، هم ايضا فلحوا كل شبر مما كانوا قد وضعوا عليه يدهم من اراض مهملة كانت منذ ازمنة بعيدة ارض الله الواسعة.

* فنان فوتوغرافي من مصر يقيم في لندن

(تحية غنائية الى اهل تونس الأبعدية بقارون الفيوم من أيمن الخراط الى أن ألتقيكم)

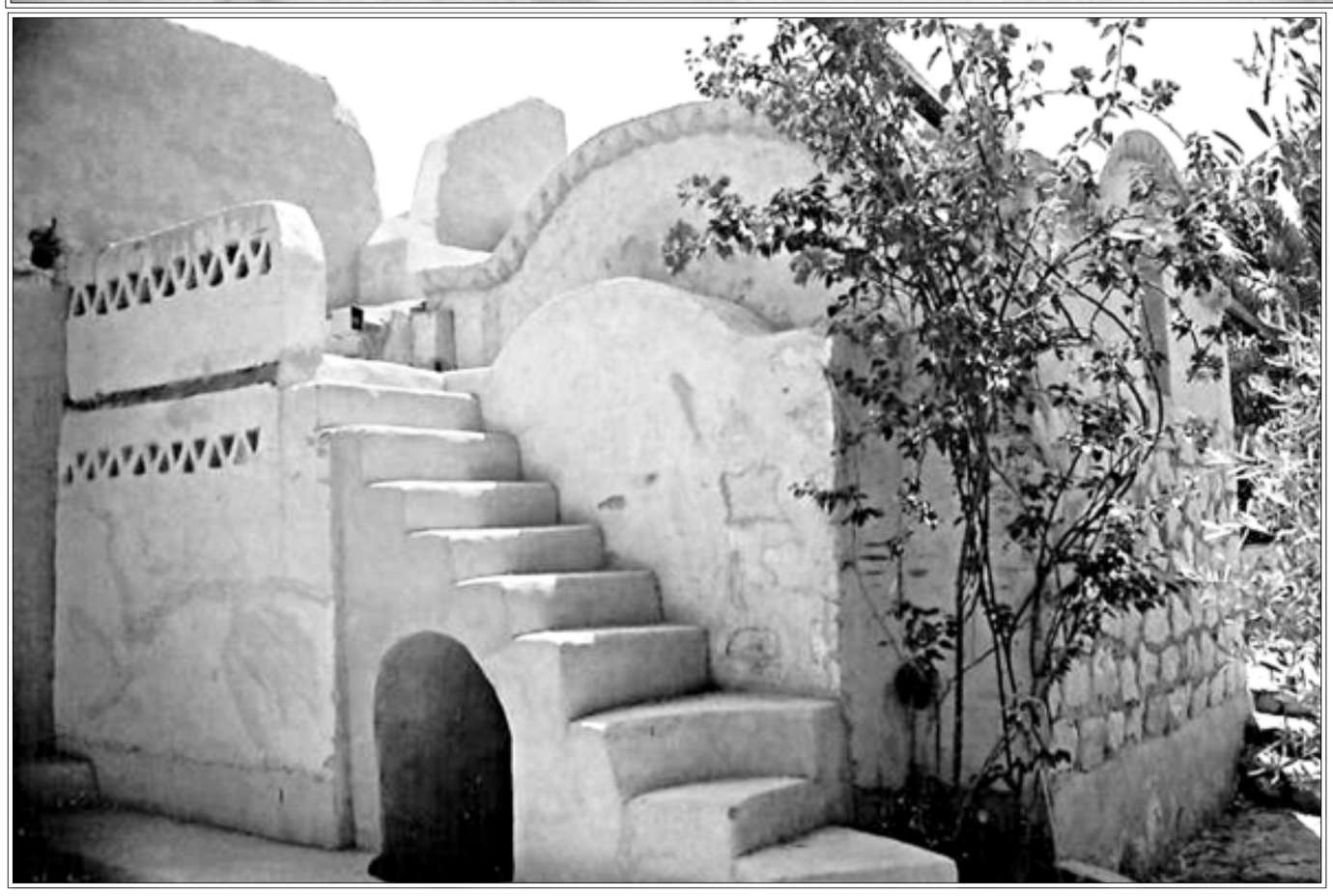

تداعيات

الصورة.. والمرآة

علي كنعان*

■ يقف الكاتب خجلا من التفوه بأي كلمة أمام كارثة غزة وما يجري فيها من حرق وتخريب وإبادة. لكن السكوت أفظع وأشد وبالا، وخاصة أن أنظمة الاستبداد العربية ما زالت على حالها في مغازلة العدو الصهيوني والعمل على استرضائه، في حين تمارس حقدا مغوليا وقمعا ضاريا ضد الشرفاء من أبناء الشعب المطالبين بالحرية والعدالة ومكافحة الفساد. ويكفي أن نشير إلى ما نشرته جريدة سورية ما زالوا يسمونها تفاؤلا «الثورة» وتصدر عن مؤسسة أطلقوا عليها زورا وبهتانا اسم «الوحدة». في هذه الصحيفة يتهمون بالرشوة المناضل الوطني المعروف والناشط الديموقراطي المستنير ميشيل كيلو. فكيف يمكن السكوت أمام العدوان الدموي الصهيوني من طرف ودجل الاستبداد المدهون بأصبغة العروبة والاشتراكية من الطرف الآخر؟!

منذ أشهر معدودات وأنا أتعجب وأتساءل: لماذا جيء بطبيب جراح إلى وزارة الإعلام، في حين حشر الإعلامي البارع داخل أسوار الثقافة المقموعة؟! في سورية نسمي الطبيب «حكيما»، ولا شك أن الدكتور بلال يمتاز بخبرة علمية واسعة في مجال اختصاصه الطبي الجراحي. وأنا واحد من الذين تابعوا مسيرته العلمية من أوائل السبعينيات في القرن الماضي، ولعل صحيفة «الثورة» المغدورة تشهد بذلك. لكن ما نشرته قبل أيام هذه الجريدة الخاضعة لتوجيهات السيد الوزير تؤكد أن «الحكمة» فاتته هذه المرة كما ستفوته في مرات كثيرة قادمة، لسبب بسيط هو غياب الحنكة السياسية والحكمة معا. ومن المعروف حتى لطلبة المدارس الشرعية أن الإعلام العشوائي، بعيدا عن الفكر السياسي المستنير، لا يستطيع أن يصنع سياسة أو يعوض عن غيابها إلا بالتهريج والدجل واصطناع المعارك البهلوانية ونشر الاتهامات الملفقة التي تثير مشاعر الشفقة والرثاء أكثر مما تثير الضحك والمتعة والانشراح، ولنترك مسألة الفائدة جانبا.

إن إطلاق الكلاب المسعورة والمأجورة لتنهش في لحم الأستاذ ميشيل كيلو ورفاقه ـ فك الله أسرهم! ـ لا ينطوي ولو على ذرة ضئيلة من شرف المهنة أو إحساس المواطنة وكرامة الكائن البشري. ومن لا يعرف قيمة الكرامة الإنسانية في نفوس معارضيه، يفتقر إلى الحد الأدنى من عزة المواطن العربي وكرامة الإنسان، على إطلاقه. وهذا، يا سيادة «الحكيم»، ليس إعلاما وإنما هو باختصار «عهر إعلامي» ـ وأعتذر من السادة القراء لاستعمال هذه اللفظة النابية، مكرها ـ ولا أدري كيف سمح بمرور تلك الأكذوبة الصارخة دركي الرقابة العصمللي المسمى «رئيس التحرير» في الجريدة المذكورة آنفا! أم أن كاتب المقال المذيل باسم مذيعة لبنانية، أترفع عن ذكر اسمها أمام الأستاذ ميشيل كيلو، أكبر من أن يرد له أمر؟! ولعل هذه الإشارة تكفي وتزيد.

كاتب إفريقي أمضى عديدا من السنين في سجون العنصرية. ويوم أطلق سراحه، سأله مراسل نيوزويك: أما آن لك أن تستريح بعد كل ما عانيت في السجون، أم أنك ستواصل مسيرتك في النضال؟

وكان الجواب مفاجئا وحاسما: إذا لم تعجبك صورتك في المرآة، فهل تحطم المرآة أم تسعى إلى تغيير ملامح الصورة؟!

إن النظام العربي العتيد، والسوري في طليعته، قد حذف مفردات النضال والحرية والكفاح والعدالة، وحتى المراعاة والإنصاف، من معجمه ومن سلوكه اليومي وصار يستمتع بتحطيم جميع المرايا التي تظهر له صورته على حقيقتها المرعبة. فهو لا يكتفي بمدائح المتزلفين والوصوليين والمنتفعين الذين يحاولون تلميع الصورة، سواء من داخل الحزب الحاكم أومن حواشيه الطفيلية المساندة، وإنما يقرر إخراس أي صوت ناقد أو معارض لحالة الفساد المزمن والمستشري في بنية السلطة وفي أوصال الجهاز الإداري والمتطاول حتى إلى لحمة النسيج الاجتماعي.

وإذا كانت المعارضة هي صمام الأمان ضد كل تجاوز وانتهاك لحقوق المواطنين، وهي المرآة الصقيلة الصافية التي تكشف للنظام المهيمن أمراضه ومخازيه وحماقاته، فإن قمع رموز هذه المعارضة والزج بطليعتها في المعتقلات يكشف أن النظام فقد كل حس ومنطق وحكمة واتزان ورؤية سليمة.

من هذه النظرة العشواء والممارسة المتعسفة في نهج النظام، يصبح السلام مع العدو ـ مغتصب الأرض ـ خيارا استراتيجيا، وإن كان ذلك العدو رافضا كل أسس السلام واحتمالاته. وفي الوقت ذاته، يرفض سادة النظام مبدأ المصالحة مع أبناء شعبهم لأن هذا الشعب ما زال «جاهلا ومشبوها وقاصرا..» وهو يحتاج إلى الوصاية والحجر وكم الأفواه.

لكن السؤال الذي يخطر في بال الكاتب المتفرج على مشاهد الكوميديا السوداء من بعيد: هل السلام هو الخيار الاستراتيجي أم أمن الوطن ومواطنيه؟ حين يطلق النظام هذا الشعار المريب: «السلام خيار استراتيجي» فهذا يعني أن نترك قوى العدوان الصهيوني تسرح وتمرح فوق أرضنا وعبر أجوائنا، ولا بأس أن تتسلل إلى غرف نومنا وتهدهد أطفالنا بروعة ألعابها البهلوانية، بينما نفرض على المنادين بالإصلاح وسيادة القانون من نشطاء الكلمة الحرة ولجان المجتمع المدني أن يخرسوا أو يناموا في الأقبية والمعتقلات.

ولو أن اللعبة توقفت عند هذا الحد، لآثرنا الصبر والسلوان والتفرج على مهرجان كرة القدم في الملاعب الألمانية الزاهية. لكن الطغاة أطلقوا كلابهم المسعورة لتنهم الأحرار الشرفاء بأحط النعوت والصفات التي امتازت بها عصابات المافيا داخل النظام ذاته.

أنا واثق أن طواغيت هذا النظام في طريق الزوال؛ ونحن جميعا زائلون في نهاية المطاف. والتاريخ يؤكد أن كل معضلة، مهما كانت عسيرة، سوف يحلها الزمن ولو بعدالة الموت. وستبقى الكلمة الحرة وحدها مضيئة صافية، رغم كل طغيان. ويكفينا أن نردد مع الشاعر خليل مطران:

كسّروا الأقلام، هل تكسيرها ... يمنع الأيدي أن تنقش صخرا؟
قطعوا الأيدي، هل تقطيعها ... يمنع الأعين أن تنظر شزرا؟
أطفئوا الأعين، هل إطفاؤها ... يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا؟
أخمدوا الأنفاس.. هذا شأوكم ... وبه منجاتنا منكم، فشكرا!

* شاعر من سورية يقيم في أبوظبي

نص

لنا عبد الرحمن*

بين بيروت وبيني.. مواعيد من وهم

■ فجأة عاد كل شيء الى الوراء... الى الوراء كثيرا لما يزيد عن عشرين عاما

صوت مارسيل خليفة عاد الى الواجهة يصدح «بالأحمر كفناه..

بالابيض كفاه..

بالاسود كفناه»

عادت بيروت الى وجعها المتجذر الذي غاص في الذاكرة عميقا من دون أن يتلاشى. فجأة انقلب كل شيء أفرغت ذاكرة الحرب، وعادت الى الواجهة.. هكذا بسهولة من الممكن لبيروت أن تغير مواعيدها وبدلا من أن تجلس في مقهى ما في الحمرا أو الروشة ستبدل وجهتك وستكون أمام شاشات الاخبار متنقلا بين الجزيرة والعربية وقناة المنار.

اليوم صباحا عند السادسة كان الخوف الأول.. ثم الخبر يتردد عبر الشريط الخبري على الشاشة «اسرائيل تقصف مدرج مطار بيروت» ثم الاسئلة.. الأسئلة الكثيرة والتخمينات حول عملية عسكرية مرتقبة.. تحليلات وتكهنات تسمعها من الأفواه الخائفة والحذرة خاصة حين تكون من ساكني الضاحية الجنوبية. لا تخونني الذاكرة أبدا بل تندفع بثقة حتى عمر السادسة لتمثل في ذهني صورة لا تنسى من أول حزيران (يونيو) عام 1982.

تلوح في ذاكرتي صور للناس يتدافعون هربا كيوم الحشر، يومها كنا نسكن قرب جسر المطار، أذكر أن أبي كان يحملني، وأمي تحمل أخي الصغير، تدافع كثيف يهز الأرض تحت أقدامنا... لم أكن خائفة لاني لم أكن اعي عمق ما يحدث.. ثم بعد ذلك تتابع الأحداث بألم وخوف هائل من الفقد. ليالي الملجأ ثم اندلاع الحريق في بيتنا في الطابق الرابع بعد سقوط قذيفة على المبنى، وكما يحدث الان إنذار للأهالي بالرحيل لكننا نؤجل الرحيل حتى الصباح وننتظر.. من دون انتظار لقذيفة ستسقط على السيارة التي سنغادر بها، ثم خيالات اشخاص ربما من بقي من شبان المقاومة يعدوننا بنقلنا الى خارج بيروت. تتغير الاشياء، وتبرز صعوبة الحياة في ظل الموت.. كنت أعي ذلك مع صعوبة الحصول على ماء للشرب، أو خبز، أو غير ذلك من الضرورات الحياتية التي تنحصر أيام الحرب بالمعلبات وبطاريات الراديو والشموع.

اليوم تعود كل التفاصيل للمثول بقوة حين يتم تحذير أهل الضاحية في بيروت ومطالبتهم بإخلاء المنطقة. حين نوضع من جديد أمام مغادرة قسرية.

أتخيل انني سأعزل عن العالم بعد قليل من الوقت، ستنقطع الكهرباء، حينها لا كمبيوتر لا تلفزيون، لا راديو، سأعود الى أوراقي البيضاء وقلم حبر أسود، أبحث عن راديو صغير بالبطارية لا أجد لقد تخلوا عن استعماله منذ زمن طويل. أسأل أخي الذي رفض مغادرة الضاحية عن محاولة العثور على راديو صغير يؤكد لي إغلاق المحلات كلها.

أنظر من البلكونة الى حركة الشارع، انتبه الى أن البناية المجاورة قد فرغت تماما وأن مرآب السيارات فارغ من أي سيارة، وبعض العائلات تخرج من بوابة المبنى الذي أسكن به. إمرأة عجوز تحمل كيس ثيابها وحقيبة يد تلمحني على البلكون تقول لي «كل الناس مشيوا» ثم تبتعد لتلحق بابنها الشاب.

أتأمل خلو المكان والهدوء المرعب الذي يعم الشارع، اذكر الشارع قبل يومين وصخبه المزعج أحيانا، زمامير السيارات، ضجيج الأطفال الذين يلعبون الكرة، حتى صاحب فرن المناقيش أقفل بابه، أدرك أنني لن أشم رائحة مناقيش الزعتر غدا ولا بعد غد.. وحتى وقت مجهول.

حزن قاتم في القلب على مواعيد نصبتها مع بيروت، مع صيدا، ومع طرابلس..

حزن قاتم على نصوص فكرت بكتابتها.. وقصص عثرت على أبطالها في مدينة الألعاب، وفي «وادي أبو جميل» أذكر «ليزا» التي التقيتها من أيام خلال قيامي بتحقيق عن «حارة اليهود» سابقا وادي أبو جميل حاليا.... .. «ليزا» التي أعادتني رؤيتها الى الحرب قبل الحرب تعيش في بناية متهالكة، كل ما في حياة ليزا متهالك، الكرسي الذي جلست عليه، والسرير الذي تنام عليه، والوحدة إلا من قططها... ليزا التي تحكي ما بين الإدراك والضياع لا تحس بعمق مأساتها، كانت متصالحة مع ذكرياتها عن بيروت قبل الحرب وبعدها. ليزا التي لا تسأل سوى عن السجائر والقهوة تبدو بعيدة الآن عن حصار الضاحية لكنها تسكن في ذاكرتي. أفتح الكمبيوتر، أحاول الكتابة.... وأردد لنفسي الكلمات أكثر بقاء على الدوام.

* كاتبة من لبنان

الفرقة السيمفونية العراقية تواصل نشاطها «ليتغلب الفن على العنف»

■ بغداد ـ اف ب: تحرص الفرقة السيمفونية العراقية على مواصلة نشاطها الشهري رغم موجة العنف التي تضرب البلاد، واحيت مساء الخميس حفلة موسيقية في قاعة نادي الصيد في العاصمة بغداد.

وشارك في احياء الامسية التي استقطبت مهتمين بالموسيقى سبعون عازفا بقيادة الفنان محمد امين عزت قائد الفرقة.

وقال عزت لوكالة فرانس برس «نرغب في ان نقدم عبر هذه الامسيات فنا راقيا يلبي حاجة المتذوقين ونسعى ايضا الى بث الروح في الصالات التي غابت عنها الامسيات منذ اعوام».

واضاف «بعيدا من موجات العنف سنعمل على ديمومة الفرقة للارتقاء بالثقافة الموسيقية بعدما عانت فراغا كبيرا ونأمل في ان يتغلب الفن على العنف». وتعتبر الفرقة السيمفونية العراقية من الاقدم في المنطقة، وكانت انطلقت مطلع اربعينات القرن الماضي مع مجموعة من طلاب معهد الفنون الجميلة في بغداد واساتذته.

لكنها تأسست رسميا عام 1959 برعاية وزارة التربية العراقية قبل ان تشرف عليها وزارة الثقافة.

وتوالى على قيادة الفرقة 17 شخصا منذ عام 1971 بعضهم فنانون اجانب واخرهم العراقي محمد امين عزت.

ورأى عزت ان «مساندة المؤسسات الحكومية وفي مقدمها وزارة الثقافة ودائرة الفنون الموسيقية من شأنها تعزيز مكانة الفرقة واعادتها الى عهدها السابق».

واوضح عزت (45 عاما) الذي تخرج من اكاديميا الموسيقى في رومانيا ان «الفرقة تقدم في حفلاتها الشهرية مقطوعات من مختلف الازمنة الموسيقية اضافة الى مقطوعات سيمفونية لمؤلفين عرب وعراقيين».

وانبثقت من الفرقة السيمفونية العراقية فرق عدة منها رباعي هايدن ورباعي بغداد الوتري وجمعية سومر وفرقة بغداد، واخرها جماعة دار السلام للموسيقى التي تأسست عام 1998.

ومن ابرز المؤلفين العراقيين الذين قدمت الفرقة اعمالهم فريدالله ويردي ومنذر جميل حافظ وعبد الرزاق العزاوي.